وسائل نمو اللغة: (الاشتقاق، والنحت، والتعريب)

العربية أوسع اللغات مدى، وأغزرها مادة، وأوفاها بالحاجة الحقيقية من معنى اللغة؛ لكثرة أبنيتها، وتعدد صيغها، ومرونتها على الاشتقاق، وانفساحها من ذلك إلى ما يستغرق اللغات بجملتها، مع أنها أقل هذه اللغات أوضاعًا، حتى إن المستعمل منها لا يتجاوز ستة آلاف تركيب، كما تفرعت سائر مواد اللغة عن هذه التراكيب بالاشتقاق.

وظاهر أن اللغة لم تترام إلى هذا الاتساع إلا بعد أن قلبت على وجوه كثيرة في الاستعمال، وأديرت على مناحٍ مختلفة من الوضع؛ بما في أصل تكوينها من الحياة النامية التي تكافئ حياة أهلها وتماد أزمنتها مهما كثرت أغراض هذه الحياة واستفاضت معانيها، واستبحرت في مذاهب العمران؛ فهي في الكفاية سواء يوم كانت لغة الطبيعة البدوية الخشنة لا تلقيها إلا على ألسنة البدو الذين هم الجزاء المتكلم من تلك الطبيعة الصامتة، ويوم صارت لغة الحياة المنبسطة تصرفها الألسنة والأقلام في مناح من العلوم والآداب والصناعات التي قام بها التمدن الإسلامي. وإن صمت الطبيعة البدوية إنما هو في حقيقة الاعتبار جزء متمم في المعنى للغة أهلها، كما أن حركة العمران إنما هي حركة العمل في مصنع اللغة. وليس يخفى أن حياة اللغة وموتها أمران يؤخذان بالاعتبار؛ فإن اللغة الحية هي التي تكون مشايعة بأوضاعها لكل ما يجد من مستحدثات الحياة، فكلما خلت ألفاظها المتداولة بين أهلها مما يصور معنى جديدًا أو يؤدي غرضًا حادثًا، لم تعقم أوضاعها بما ينتج هذا اللفظ الجديد ويسد هذه الخلة الطارئة؛ فهي –بذلك- في ما تأخذ وتدع كأنها تتنفس، والتنفس أول صفات الحياة.

ولكن اللغة التي ترمى بأنها في سبيل الميتة، لا يزال يطرأ عليها النقص كلما زادت مستحدثات الحياة؛ لوقوفها عن حد من الوضع محدود، وقعودها بكل طريق تدفع إليه من طرق التعبير، فلا يبرح أهلها يتناولون من غيرها، ويزيدون نقصها؛ حتى تصبح بهذه المداخلة لغة جديدة من عمل الزمن وكأن أصلها بقية من أهلها، وأهلها بقية من أصلها؛ لفقدان المميزات الجنسية التي أخص دلائلها اللغة.

والعربية قد غَنِيت بأوضاعها حتى كأنها خلقت لتماد الزمن، وفيها من أسباب النمو ما يحفظ عليها شباب الدهر، غير أنه قد أصابها ما أصاب أهلها من تبدد الكلمة واضطراب الأمر ووهن الاستقلال وتمزق المجتمع، فأصبحت بعدهم كأنها محكومة بقوة خفية لا يعرف ما هي ولا يظهر منها إلا أثرها الذي تتبينه فيما لحق اللغة من الضعف وما رهقها من العجز، وفي جمودها على حال واحدة كأنها مقبورة في كتبها منذ تراجع التمدن الإسلامي أيام العباسيين إلى قريب من هذه الغابة.

ومتى كانت اللغة صورة الأمة فإن كان ما يعتور هذه يتصل أثره بتلك ضرورة. ولذلك بقيت العربية في نفسها على مرونتها الأولى حتى يتاح لها أقوام كأولئك الأقوام، وتفيض لها أقلام كتلك الأقلام.

والسؤال هنا: هل تصلح اللغة العربية التي كانت وعاءً لحضارة زاهية خلال قرون عدة في الماضي، أن تكون وعاءً لحضارة أخرى كالحضارة المعاصرة؟

إن جوهر الجواب هو أن اللغة التي كانت وعاء لحضارة زاهية في الماضي لن يُعجزها أن تستجيب لمُواضعات الحضارة المعاصرة، لِما في هذه اللغة من مرونة واتساع وتعدُّد الوسائل، والقابلية للنموّ، وقد عقد القدماء من علماء العربية فصولاً مستفيضة في كتبهم لبحث عدة مسائل من اللغة، تدور كلها حول ظاهرة واحدة هي نمو اللغة في ألفاظها وأساليبها، ووسائل هذا النمو.

ويرى **الدكتور إبراهيم أنيس** أن هذه الطرائق - وإن لم يربط القدماء بينها - تمثل طرائق مثلى لنمو اللغة، وأنها هي التي أمدَّتنا بفيض زاخر من الألفاظ والأساليب، وجعلت من لغتنا العربية أغزر اللغات السامية مادة، وأكثرها تنوعًا في الأساليب، وأدقها في القواعد.

ومن هذه الوسائل التي فصل **الدكتور أنيس** القول فيها:

١- الاشتقاق. ٢- النَّحْت. ٣- التعريب.

١. الاشتقاق: هو انتزاع كلمة من كلمة أخرى، على أن يكون بينهما تَناسُب في اللفظ والمعنى، ويُعدّ الاشتقاق من أهم الروافد التي تمد اللغة العربية بما تريد من ألفاظ عن طريق هذا التوليد من (المادة الواحدة)، ومن أجل هذا **توصف اللغة العربية بأنها لغة اشتقاقية**؛ لأنها تتوصل إلى كلماتها عن طريق استخدام المادة بجميع صور الاستخدام.

ومن أنواع الاشتقاق:

١- **الاشتقاق الصغير:** ويسمى **الأصغر او العام او الصرفي**، وهو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية أو هيأة تركيب لها، ليدل بالثانية على معنى الأصل وزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيأة، كضارب من ضرب، وحَذِرَ من حَذَرَ، وطريقة معرفته تقليب تصاريف الكلمة، حتى ترجع الى صيغة هي أصل الصيغ، فكلمة (ضَرْبٌ) دالة على مطلق الضرب فقط، أما ضارب ومضروب ويضرب واضرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً وكلها مشتركة في (ض، ر، ب) وفي ترتيبها.

أما عن فائدة الاشتقاق فقال عنها ابن السراج (إن المنفعة عظيمة فيه ، لأن من تعاطى علمه سهل عليه حفظ كثير من اللغة ، لأنه أكثر بعضه من بعض، فإذا مرّ بألفاظ منتشرة بأبنية مختلفة تجمعها، جعل ذلك رباطا فلم تعجزه، وحفظ الكثير بالقليل).

٢- **الاشتقاق الكبير:** ويسميه ابن جني **الاشتقاق الأكبر**، ويسمى كذلك **القلب او القلب اللغوي**، قال ابن جني: ((وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثة فتعقد عليه، وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه، ردَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد)). وقد ضرب ابن جني على هذا الاشتقاق أمثلة

كثيـرة منها قولهُ: (فمن ذلك تقليب (ج ب ر) فهـي أين وقعت للقـوة والشدة)، وكذلك تقليب (ك ل م) وتقليب (ق و ل)، وقال: (وذلك أنا عقدنا تقاليب الكلام الستة على القـوة والشـدة، وتقاليب القول الستة على الإسراع والخفة). واعترف ابن جني نفسه بأن هذا الاشتقاق صعب التطبيق على جميع نصوص اللغة. لـذلك لـم يكـن محـل اتفاق بين علماء العربيـة فمنهـم مـن أنكـره كالسيـوطي.

٢. النحت: هو ((**أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ**)). وهو -كما عرفه الأستاذ عبد الله أمين- ((أخذ كلمة من كلمتين أو أكثر مع المناسبة بين المأخوذ والمأخوذ منه في اللفظ والمعنى معا بأن تعمد الى كلمتين أو أكثر، فتسقط منهما، أو من بعضها حرفاً أو أكثر وتضم ما بقي من أحرف كل كلمة الى الأخرى وتؤلف منهما جميعا كلمة واحدة فيها بعض أحرف الكلمتين، أو الأكثر، وما تدلان عليه من معان)).

وأمثلته القديمة في اللغة أكثر من أن تُحصى مثل: **بسمل، وحيعل، واسترجع**؛ (أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون)، **وبأبأ**: أي قال له: بأبي أنت وأمي، **وحوقل** (أي قال لا حول ولا قوة إلا بالله، ويقولون كذلك: **عبدري** (أي من بني عبد الدار)، **وعبشمي** (أي من بني عبد شمس).

٣. التعريب: هو لفظ وضعه غير العرب لمعنى استعمله العرب بناءً على ذلك الموضوع. **ويسمى المعرّب دخيلاً** أيضاً، وهو (**اللفظ الأعجمي الذي أدخلته العرب في لغتها، وصقلته على منهاجها وأوزانها، أو تركته بغير صقل، وربما تناولته بالاشتقاق**)، **فالمعرّب** هو اللفظ الأعجمي الذي يدخل اللغة العربية عن طريق الاحتكاك باللغات الأجنبية وقد تطرأ عليه تغييرات في الحذف والزيادة وقد تبقى اللفظة الأجنبية على حالها من غير تغيير وتعامل معاملة المفردة العربية في اجراء مقاييس العربية عليها.

ولم يختلف اللغويون العرب قدامى ومحدثون في مسألة وقوع المعرب في اللغة العربية، بل اعترفوا به وعدّوه وسائل إثراء اللغة العربية وذكروا ألفاظاً كثيرة نسبوها الى لغاتها التي أخذت منها، فمن هذه الألفاظ ما أخذ من الفارسية ومنها ما أخذ من الحبشية ومنها من الآرامية. ولكن الخلاف الذي حصل هو في وجود اللفظ الأعجمي في القرآن الكريم الذي قال الله سبحانه عنه: ((**إنا جعلناه قرآناً عربياً**)) (الزخرف: ٣).

ووضع بعض علماء العربية علامات عامة يتميز بها كثير من الكلمات المعرّبة (الدخيلة)، ومن هذه العلامات:

١- أن تكون الكلمة مخالفة لأوزان العربية: نحو (إبريسم، وخُراسان، وجبريل).
٢- أن تكون فاء الكلمة نوناً وعينها راءً نحو (نرجس، ونرد، ونرجيل).
٣- أن تنتهي الكلمة بدل فزاي نحو مهندز، وقد قلبت زايه سينا عند تعريبها.
٤- أن تشتمل الكلمة الجيم الصاد معا نحو (جص، وصنج، وصولجان).

٥- أن تشمل الكلمة على الجيم والقاف معا نحو (المنجنيق، والجوقة، والجوالق: هي وعاء، والجردقة وهي اسم للرغيف، والجرموق وهو ما يلبس فوق الخف، والجوسق وهو القصر).
٦- ان تكون الكلمة رباعية او خماسية مجردة من حروف الذلاقة التي يجمعها قولها (مر بنفل) نحو (جوسق).

ومن الألفاظ التي ذكر علماء العربية أنها معرّبة من لغات أخرى وقد دخلت هذه الألفاظ القرآن الكريم، فقد ورد في القرآن الكريم من الفارسية سجيل وإستبرق، ومن الرومية: الصراط، والقسطاس، والفردوس، وشيطان، وإبليس، ومن الحبشية: أرائك، ومشكاة، ومن السريانية والعبرية: اليـم، والطور، والفوم، وطه.